وقفة امام المقالة الاخيرة للمفكر الامريكي فوكوياما

حمدان حمدان *

■ تزودنا المقالة الهامة الاخيرة للمفكر الامريكي المعروف فرنسيس فوكوياما، بعنوان ما بعد المحافظية الجديدة والمنشورة في مجلة «نيويورك تايمز ماغازين» شباط (فبراير) 2006 بشريط طويل وتاريخي، عن الموروث الفكري لجماعات المحافظين الجدد، حيث انبثقت الجذور من مجموعة استثنائية من المثقفين (وشريحة واسعة منهم من اليهود الذين مروا بالسيتي كوليج اوف نيويورك من منتصف واواخر الثلاثينات من القرن الماضي) ويذكر منهم ايرفين كريستول ودانييل بيل وايرفنغ هو وناثان غلازير.. وكان يتلخص الارث الاكبر لهذه المجموعة، بمعتقد مثالي يذهب الى تحقيق تقدم عالمي اجتماعي، والدفاع عن حقوق الانسان، مقرونة بمعاداة (تروتسكية) للشمولية الستالينية المطلقة الى درجة الوحشية.

وقد مثل المحافظون الجدد في بكورة نشأتهم، تيارا يساريا معاديا للشيوعية الدولية، ومناصرا للاهداف الاجتماعية كما تفهمها التروتسكية الماركسية، ثم ما لبثت ان انكفأت تحت وطأة فظاعة النتائج غير المقصودة، لانظمة تتحدث عن فرض العدالة الاجتماعية بقسوة امنية لا حدود لطغيانها، ثم توصلت المجموعة عبر «الهندسة الاجتماعية المفروضة من قبل الشيوعيين، غالبا ما تركت المجتمعات في حال اسوأ بكثير مما كانت عليه قبلها». ومن جديد، فان النتائج التطبيقية لنظام ستاليني شائع، يعطي الدفعة بجدارة النظر في تأويل سقوط الماركسية الشيوعية، وفيما اذا سقطت الشيوعية ام الشيوعيون، الذين باتوا، مع ذلك، يتسربون الى الحياة السياسية من جديد، وان العدالة مطلب انساني منذ فجر التاريخ سواء كانت افلاطونية ام ماركسية.. وعلى التوازي، ومن خلال فظاعات النتائج المدمرة، لنظام كلياني مطلق، يدعي العدالة ثم آل الى السقوط، فقد اغلق التاريخ، على نهاية سعيدة، فهمناها كتوق عالمي جارف نحو الحرية، مما سيؤدي حتما الى شيوع ديمقراطية ـ ليبرالية حيث الحركة العالمية تتزايد سرعتها لصالح هذه الديمقراطية.. ويصحح صاحب الفكرة (فوكوياما نفسه) هذا الفهم المغلوط الناجم عن التباس (ربما متعمد من المحافظين انفسهم) في قراءة كتابه المعنون (نهاية التاريخ) فهو كما يؤكد «ليس دعاية سياسية للمحافظين الجدد، رغم انني كنت تلميذا لاحد عمالقتهم آلان بولم، الذي هو تلميذ بدوره لشيخ المحافظين الجدد ليفي شتراوس» لكن كتابي يشكل قراءة مطلوبة بخصوص الحداثة، فما هو عالمي بالاساس ليس الرغبة العالمية بالديمقراطية التي يتوجب على التاريخ ان ينغلق عليها، وانما الرغبة في العيش في مجتمع محدث، اي متقدم تكنولوجيا ومزدهر، وهو ما يميل الى تحفيز مطالب المشاركة السياسية ويضيف «ان الديمقراطية ـ الليبرالية هي احدى النتائج الثانوية لعملية التحديث في سياق تقدمها التاريخي».

المحافظون الجدد، فهموا تاريخ فوكوياما، على انه انغلاق التاريخ على آخر الانظمة (الايديولوجية) في مسيرة الانسانية، الا وهو نظام الرأسمالية الليبرالية الغربية، وربما بالاخص شكل النظام السياسي في امريكا، ذات القوة الاحادية في العالم، ومن هنا، جاءت النظرة الاحادية للديمقراطية (كسبب جوهري لاندلاع الارهاب في جزء حساس من هذا العالم) ففقدان الديمقراطية، هو المسبب للخراب والارهاب، وقد استنبت المحافظون الجدد، فكرة غريبة تتمحور حول مقولة (الهيمنة الخيرة) بغرض جلب الديمقراطية الى الآخر، وهي ثقافة تسليح قائمة على مفهوم التجارة الامريكية. وقد كتب بارزون مثقفون من امثال الكتاب تشارلز كروتامر، وروبرت كاغان، ووليم كريستول.. آيات من البينات والمقالات، وكلها تجول في ممارسة قوة طيبة (اي انها تطلق النار بقفاز من حرير)، على الانظمة الشمولية مع شعوبها، ولأن العديد من اجيال الحروب في اوروبا، ما زالوا على قيد الحياة، فقد استدارت الوجهة الامريكية نحو ذرائعيات اشد بؤسا من الحرب الاخيرة في احتلال العراق، ولا يمانع الرئيس بوش من الانتقال من مرتبة النبوة، الى مرتبة الفلسفة، حين يؤدلج لتماه الى درجة الاتحاد العنصري، بين ما هي مبادىء وولسونية ومصالح كيسنجرية في عالم الداخل الامريكي اليوم، اي ان المصالح لا تخرج من فوهة مدفع، بل من وصايا كنيسة مباركة، وعليه فان المصالح والمبادىء، متحدان جمعيان، كفطيرة تفاح امريكية باركتها تلاوة من العهد القديم (بأورغ القس روبرتسون) حامل الوحي من الاب الاعلى.

على الارض فقد استسهل المحافظون الجدد ارساء الديمقراطية من نبوءة الهيمنة الخيرة على العراق (وقبله افغانستان) وبأقل الآلام، من خلال استنتاج مثقل بالاخطاء الميكانيكية، فقد عارضوا سهولة سقوط الاتحاد السوفييتي، القوة القطبية الموازية آنذاك، بهشاشة النظم الديكتاتورية من داخلها، واتخذوا مثلا بسقوط نظام تشاوشيسكو السهل في رومانيا، ثم ما عتموا ان عموا التجربة ابتداء من المربع الاول، او ما سمي بفلسفة التدمير الخلاق، وفي المخيال الامريكي فان ما نجح في روسيا واوروبا الشرقية.. يمكنه ان ينجح في الشرق الاوسط الكبير، وقد رسمت هذه المخيلة، خطا استقطابيا حادا (خاصة بعد احداث ايلول) بين معسكرين على شكل حرب عالمية ثالثة تتمثل في قوى الخير وقوى الشر، الاولى مع الديمقراطية والثانية لصالح الارهاب، اما السببية العميقة والجوهرية لدوافع الصراع، بغض النظر عن توصيف المحاور، فانها ما زالت غائبة عن التفكير السياسي الامريكي بصورة عامة، فالارهاب حتى وفق المقولة الفوكوياماية الجديدة، ما زال حدثا هابطا من فراغ الاسباب، فهو يدعو مثلا الى «تجريد الحرب العالمية على الارهاب من طابعها العسكري والانتقال الى نوع آخر من ادوات السياسة» دون ذكر لتاريخ استعماري بالقرون واستيطاني اسرائيلي بالعقود، اما ما حدث في افغانستان والعراق، فهي استطالة سببية اضافية لانتشار العنف او ما تسميه الادارة بالارهاب.

وتقع نصائح فوكوياما، وحتى نقده الشديد للسياسات الخارجية الامريكية في خانة الحرص على سلامة الولايات المتحدة، وليس نظرة العدالة لصالح الشعوب المقهورة من قبلها، فهو ينصح بان الصراع ضد الارهاب، لا يحتاج الى تجريد حملات عسكرية تخوض حروبا ضد جبهات شبحية، لا مكان لها او زمان، بل (بمنافسة سياسية على قلوب المسلمين العاديين وقلوبهم).

اما الاحداث الاخيرة التي انطلقت من الدنمارك فهي مؤشر مشؤوم، سيضع اوروبا في ساحة قتال مركزية لا نهاية لدمائها حسب قوله. ويحاذر فوكوياما من ان العراق حتى اليوم، مكان افغانستان كمغناطيس وارض للتدريب بقاعدة جهاد المجاهدين والارهابيين بوجود الكثير من الاهداف الامريكية لاطلاق النار عليها.. لكن فوكوياما لا يتحدث عن مئة الف عراقي وعراقية، قتلوا منذ غزو العراق وحتى اليوم، ويتحدث «عن فرصة لخلق ديمقراطية عراقية يهيمن عليها الشيعة» فيما لا يسعفنا الفهم باقران ديمقراطية مع هيمنة شيعية! ولا يشرح لنا، كيف ان «الشعب العراقي حقق فوائد واضحة من اسقاط ديكتاتورية صدام» وفيما اذا كانت (الفوائد الواضحة) هي في الفوضى والقتل على الغارب، ام هي في الثمانين بالمئة من اليد العاطلة عن العمل، ام هي في فقدان الماء والكهرباء واغلاق الابواب مع المغيب، او قراءة الفاتحة على النفس الحية التي يمكن لها ان تموت بعد دقائق من الخروج من المنزل، او لعلها تموت مع اسرتها داخل المنزل نفسه، فيما جميع الجرائم تسجل ضد مجهول.

لقد زودتنا مقالة فوكوياما الجديدة، بما يقع في جوهر المحاكمات المنطقية الغريبة للمحافظية الامريكية الحاكمة اليوم، فهي تستغرب انه حتى مع الهجوم الديمقراطي الاوسع، فقد قامت جماعة الاخوان المسلمين بعرض قوي في الانتخابات المصرية الاخيرة، وان المد الاسلامي المتطرف، رفع رئيسا لايران، وان صعود الكتلة الشيعية في العراق، كان العنوان الابرز، لنتائج ديمقراطية متخيلة في العراق، وان الطامة الكبرى كانت في نجاح الاصولية الفلسطينية المتمثلة في منظمة حماس، التي هدفها بحسب التنظير الاعلامي اليهودي ـ الامريكي المتفوق، هو تدمير اسرائيل وليس تحرير فلسطين.

وفي جميع الاحوال، فان السؤال يبقى قائما اذ ما العمل مع ديمقراطية مفترضة، لكنها جلبت اعداءها الى حياضها؟! واين كان الخلل؟! ويستدرك فوكوياما، في قراءة حديثة لكتابه العالمي، «نهاية التاريخ»، بأن المطلوب العالمي، حسب وجهة الكتاب، لم يكن هو الديمقراطية الليبرالية بل تهيئة الارضية لدخول الشعوب في الحداثة، والديمقراطية بدورها هي ناتج هذه الحداثة، وليست بالضرورة سببا لها، وقد عبرنا عن هذه الفكرة في كتابنا «العراق وثمن الخروج من النفق» حيث نشرت «القدس العربي» فصولا منه، وتدور الفكرة الرئيسية فيه، حول الحداثة، اي الدخول في العصر، من حيث هو مبتدأ النهضة بصفتها صراعا ضد الافكار والبنيات التحتية المتخلفة، وقد صادف في التاريخ، ان بدايات القرع على ابواب الحداثة، انما جرى وفق نموذجين لجهة طبيعة النظام السياسي فالنموذج الغربي كان معروفا من حيث انطلاقاته المديدة، في التحويلات الثورية، للافكار واساليب الانتاج ونهوض المؤسسات والمجتمعات المدنية والثورات الاجتماعية والفكرية.

اما النموذج الثاني، فقد ابتدأ من عل، اي من الدولة ذاتها، وهو ما يطلق عليه تجاوزا بالنموذج الآسيوي، فالحداثة في اليابان بدأت من الاصلاحي الاول، الامبراطور مايجي، ولولا اطماع القرن الاستعماري (فرنسا + بريطانيا) في المنطقة لكانت تجربة النهضة الحداثوية في مصر، قد نجحت على يد محمد علي باشا، كذلك الاحوال نفسها بتفاوت الظروف والشروط والازمنة.. وطبيعة العامل الخارجي (امريكا + اسرائيل) بهجماته المباشرة لتحطيم الحلم التاريخي في الخروج الى العصر، واسقاط دولتي المشروع في مصر عبد الناصر وعراق صدام حسين، لقد سبق لصموئيل هانغنتون صاحب «صراع الحضارات» والمنافس القوي لفوكوياما، ان اعتبر في العام 1968 (كان شابا انذاك) بأن النموذج التصديري للديمقراطية الامريكية، يكون احيانا اشبه بزراعة النخيل في الاسكا، وعزا ان الاخفاق الامريكي قد لا يعود الى العقلية اليمينية الامريكية بصورة عامة، بل والادق الى الاستهتار الامريكي بأشكال التطور السياسي تاريخيا، ويضيف في اطروحته «من التغيير الى التغيير» في العام المذكور اعلاه (1968) «تاريخيا فان الامريكيين استمتعوا بثمار الديمقراطية من دون ان يعانوا عذابات الوصول اليها.. فأمريكا ولدت بحكومة ومؤسسات وولايات بفعل جهود آبائهم البريطانيين منذ القرن السابع عشر». فالتحرك نحو الديمقراطية، يعني جملة الجهود التي تؤدي الى نجاحها، ولا شك ان الحداثة هي العتبة الاولى لبلوغ الهدف على الطريق الطويل، فالمشكلة المتميزة تحليليا ذات الصلة بالامر، انما تتصل ببنية الموقع الذي نتكلم منه، فمن علامات الديمقراطية بمعنى الحداثة السياسية وعقلنة النظام، انها تقتضي رفع منسوب الوعي المجتمعي، وهذا بدوره يتطلب استبدال عدد كبير من السلطات التقليدية والمذهبية والعرقية والعائلية.. ويتدرج مع ذلك بالتزامن مع جهد المسار نحو تنمية اقتصادية مواتية، تقاس بمستوى نصيب الفرد من الناتج الوطني، ومستوى التقدم في التصنيع، والتعليم والصحة والمتاح من المستشفيات والاطباء والمدارس والجامعات.. وسائر الخدمات الحياتية الاخرى.. وكلها مجهودات ذاتية وليست خارجية. ويضيف هانغنتون بان عملية الحداثة بغاية الدمقرطة انما هي الجسر الفاصل بين مجتمعين الاول ما زال يحبو مع التاريخ البدائي للانسان، والثاني في حالة صراع مع الفضاء.

والسؤال، كيف يمكن لنخبة ذات كعب في الثقافة الامريكية العالية، ان تفوتها بدهيات التطور السياسي في تاريخ الشعوب، ام انها حقائق المصالح التي لا يساوي معها تاريخ الشعوب، بأكثر من رشفة براندي الى جانب موقدة حطبية؟! ننتظر مكر التاريخ بحق الامبراطورية الجديدة في هذا العالم.

* كاتب من فلسطين يقيم في سورية

همالة العرب أم أطماع ايران؟

عبد الستار قاسم *

■ أنظمة عربية عديدة تحسب حسابا الآن للتطوير العسكري الايراني، وترى في البرنامج النووي الايراني خطرا على العرب، وترى أنه من المهم جعل المنطقة العربية الاسلامية وبالذات منطقة الخليج خالية من أسلحة الدمار الشامل. الملاحظ ان هذه الأنظمة لا تستفزها الانتهاكات التي تقوم بها اسرائيل والولايات المتحدة للأرض العربية والكرامة العربية، وانما تستفزها سياسات دول مجاورة أو تنظيمات وأنظمة عربية تحاول انتهاج سياسات لا تتوافق مع اسرائيل وأمريكا وتتحدى سياساتهما.

أذكر هنا كيف ان الأنظمة العربية القلقة الآن من ايران صمتت عندما قام شاه ايران باحتلال الجزر الاماراتية في الخليج، واعتبر بعضهم مثل النظام المصري ان الجزر عبارة عن صخور لا تستحق الاهتمام. وأذكر ايضا كيف ان النظام العراقي غض الطرف عن انتهاكات شاه ايران لمياه شط العرب، بل وعقد معه اتفاقا منحه بموجبه حقوقا في شط العرب. لم يكن لدينا من تفسير حينئذ الا ان شاه ايران كان يمثل شرطي أمريكا واسرائيل في المنطقة، والقبول بانتهاكاته كان تمشيا مع الرغبات الأمريكية. انقلبت الأمور بعد انتصار الثورة الايرانية وطرد الشاه من ايران. تذكرت الأنظمة العربية عندها بأن الجزر عربية، وتذكر النظام العراقي شط العرب وقرر الغاء الاتفاق مع ايران.

أطلب اذن القارئ في التذكير بما كتبته حول هذه المسألة عام 1979 في كتاب لي بعنوان سقوط ملك الملوك. قلت ان الأنظمة العربية ستفتعل المشاكل لايران بعد انتصار الثورة لأنها لن تسير في الركب الأمريكي ولأنها لن تقبل بوجود اسرائيل. توقعت ان تخوض الدول العربية حربا ضد ايران من خلال العراق وبدعم غربي. هذا ما حصل، وقدمت أمريكا واسرائيل تسهيلات للطرفين من أجل استنزاف طاقاتهما المادية والمعنوية، ومن أجل اذكاء نيران الأحقاد والكراهية بينهما. وتوقعت أيضا استنفار بعض رجال الدين من أجل احياء فتنة علي ومعاوية ويزيد والحسين واللعب على حبل السنة والشيعة. هذا ما حصل، وهذا ما يتم تزويده الآن بمزيد من الزيت سريع الاشتعال.

تطوير اسرائيل للأسلحة والقنابل النووية لم يستفز العرب، أما برامج ايران التسليحية فلا تجعل قادة عربا كثرا ينامون بهدوء. انهم مستنفرون مع الولايات المتحدة من أجل مواجهة هذه القوة الايرانية التي تطل برأسها. وهنا لا بد ان نتذكر سياسة أمريكا في تسليح العرب والتزامهم بها. اشترطت أمريكا على العرب الذين حصلوا منها على صواريخ مضادة للطائرات نصبها في مواقع بعيدة عن اسرائيل حتى لا تكون قادرة على اسقاط طائرات اسرائيلية في المجال الجوي الفلسطيني. هكذا حصل في الأردن. وعندما زودت أمريكا بعض الدول العربية بطائرات «ف 15» و«ف 16»، أزالت من بعضها بعض الأجهزة الحساسة لكي تكون أقل قدرة من الطائرات الموجودة لدى اسرائيل، واشترطت ان تبقى الطائرات المتكاملة بعيدة عن اسرائيل. هذه أسلحة موجودة من أجل الحروب الداخلية العربية، أو من أجل قتال الجيران عدا اسرائيل.

وقعت الدول العربية على معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية في حين ان اسرائيل لم توقع. وعندما ترددت مصر في التوقيع وجدت نفسها تحت ضغط أمريكي فوقعت. الأنظمة العربية لا تستعد لقتال اسرائيل أو أمريكا التي تنهب خيراتنا، وهي تعمل على تجريد كل من يحمل السلاح في مواجهة هاتين الدولتين من السلاح. أغلب الأنظمة العربية تقف ضد سلاح حزب الله، وهي تطالب حماس والجهاد الاسلامي بالقاء السلاح والاعتراف باسرائيل. واضح ان هذه الأنظمة لا تكترث بأمن العرب وانما بأمنها هي.

اذا كانت ايران تسعى لامتلاك القوة فذلك من أعمال الفضيلة من حيث ان القوي أفضل من الضعيف، والذي يحاول اكتساب القوة أفضل من الذي يعتمد على الغير. هناك جدل يمكن ان يثور حول استعمال القوة لأن الممارسة العملية هي التي تحدد فيما اذا كانت ايران على حق أو على باطل. استخدامها للقوة دفاعا عن الذات وعن العرب والمسلمين لا يمكن ان يندرج تحت ظل الأطماع، وتزويدها لحزب الله بالسلاح ليس رذيلة. هناك فارق كبير بين الذين يريدون لأنفسهم المنعة بمعزل عن مساعدة آخرين، وبين الذين يصرون على البقاء ضعفاء يستجدون أمما أخرى لحمايتهم ويقدمون مقابل ذلك أموالهم وثرواتهم. وهناك فارق بين الذين يدعمون حركات التحرر والتحرير وبين الذين يطلبون من المجاهدين القاء السلاح. المعنى ان ايران لا تتحمل وزرا في تطوير قدراتها الدفاعية والهجومية، والعرب يتحملون وزر هذا الضعف والهوان الذي هم فيه.

ويبدو أننا نحن العرب لسنا مجرد مهملين، وانما نحن همل.

انني على وعي تام بأن أغلب الأنظمة العربية لا ترى في اسرائيل خطرا على وجودها مثلما ترى في ايران، بل ربما ترى في اسرائيل عنصرا داعما لاستمرار وجودها. لكن الحقيقة التاريخية تبقى ساطعة وهي ان الذي لا يحصن ذاته يبقى مطية سهلة لمن يريد ان يمتطي، واذا قارنا مستقبل اسرائيل بمستقبل ايران فان اسرائيل مصيرها الى زوال وليس بعد عمر طويل. لذلك من الحكمة ألا يخاصم العرب ايران، كما أنه على ايران ألا تخاصم العرب، وألا تتعامل مع العرب على اعتبار ان هذه الأنظمة باقية. مصلحة الشعوب والأمة فوق كل اعتبار، والتعاون بين العرب وايران يجب ان تكون له أولوية وفوق المصالح الاسرائيلية والأمريكية. وللعرب ان يعلموا ان أمريكا لا تحترم الضعفاء، وهي دائما جاهزة للتخلي عن أفلاكها لقاء مصالحها.

* كاتب من فلسطين

المسيح والمسيحيون براء من مجرمي الحرب

زهير اندراوس *

■ بصورة أو بأخرى يمكن اعتبار السيد المسيح عليه السلام أول شهيد سقط على أرض فلسطين الغالية، بعد أن تعذب في أسبوع الآلام، لكنه صمد ومات ووهب حياته من أجل انقاذ الآخرين. ويوم الأحد الـ16 من شهر نيسان (ابريل) الجاري تحتفل الطوائف المسيحية التي تسير على التقويم الغربي بعيد الفصح المجيد، الذي يجسد قيامة السيد المسيح من بين الأموات. وباعتقادنا فان هذا العيد هو مناسبة لمراجعة الحسابات والتطرق الى التداعيات السياسية التي تشهدها منطقة الشرق الأوسط، وتحديدا فلسطين والعراق.

من المفارقات غير العجيبة في هذا الزمن الرديء ان مجرمي الحرب في الولايات المتحدة الأمريكية وفي أوروبا سيحتفلون هم أيضا بهذا العيد. الهي، الهي، انهم سيدخلون الى الكنيسة، مع عائلاتهم لتناول القربان المقدس. والمجرم رقم واحد، الرئيس الأمريكي جورج بوش، لن يرتعش عند دخوله الى المكان المقدس، لن يخشع ولن يركع. فعنجهيته لا تسمح له بذلك. زد على ذلك ان الرجل الذي يدعي ان الرب سبحانه وتعالى أمره بغزو العراق، خالف تعاليم السيد المسيح الذي قال: قليل من الخمر يفرح قلب الانسان، وتحول القليل الى كثير حتى أصبح مدمنا على الكحول. ومع اننا لسنا أطباء، الا أننا نميل الى الاعتقاد بان جسم هذا البوش ما زال يعاني من ترسبات الكحول. المشهد السوريالي سيصل الى أوجه عندما يتقدم هذا المجرم لتناول القربان المقدس، الممزوج بالنبيذ الأحمر. لن يرتجف ولن يشعر بأنه يدنس الكنيسة، وعليه لا غضاضة في ان ننصحه أن يتذكر وهو يفعل ذلك بأن دماء أطفال فلسطين والعراق، الذين قتلتهم آلة الحرب الارهابية بأوامر صادرة منه ومن افراد عصابة من يسمون أنفسهم باليمين المسيحي المحافظ، لونها أحمر، بل وليس أقل احمرارا من النبيذ. لا نريد في هذا السياق اسداء النصائح لرئيس الدولة العظمى، ولكن لا ضير في ان نذكره بان يحاول في لحظة عابرة ان يتذكر بأنه تعدى بصلافته ووقاحته على الوصايا العشر، فقد حول الوصية التي تقول لا تقتل، الى اقتل، اقتل، اقتل. أهذا هو دين التسامح الذي تربيت وترعرعت عليه، يا سيد بوش، من سمح لك وللزمرة التي تحيطك بأن تنتهك أرضنا وعرضنا وتقتل الانسان الذي فينا؟ من أين تستمد هذه العقلية الاجرامية: أمن حقول النفط في تكساس، أم من البورصة في نيويورك؟ لأننا كما تعلمنا فان المسيحية بعيدة كل البعد عن الاجرام المنظم وغير المنظم، لا علاقة لها لا من قريب ولا من بعيد بالارهاب الذي تمارسه دولتك في جميع أصقاع العالم، والمضحك، ربما المبكي، ان هذا الرجل يقتل ويسلب حياة الآخرين تحت مسميات مكافحة الارهاب. عن أي ارهاب تتحدث يا سيد بوش، وأنت من اكبر الارهابيين الذين عرفتهم الانسانية؟

من ناحية أخرى مكملة سيحتفل قادة الاتحاد الأوروبي المسيحيون بعيد الفصح، بعد ان اتخذوا قرارهم المتسامح جدا، بتجويع الشعب العربي الفلسطيني في المناطق التي احتلتها اسرائيل في عدوان حزيران (يونيو) من العام 1967. اتخذتم القرار، أيها السادة، في اليوم الأول من أسبوع آلام السيد المسيح. تتشدقون بالمسيحية وتهاجمون المتطرفين الاسلاميين، على حد تعبيركم، متناسين ومتجاهلين ماضيكم الأسود وحاضركم القاتم. تذكروا، أطفال فلسطين ولا أحد غيرهم هم الذين سيعانون الأمرين نتيجة حرمانهم من المساعدات التي قطعتموها عن الشعب الفلسطيني لأنه انتخب بانتخابات ديمقراطية حركة المقاومة الاسلامية (حماس) «الارهابية».

بربكم وبدينكم ماذا تريدون منا؟ ألا يكفيكم وعد بلفور المشؤوم؟ الم تصلوا الى نشوتكم العارمة عندما أمليتم علينا اتفاق سايكس ـ بيكو؟ هل نسيتم تاريخكم الارهابي؟ لا نريد في هذه العجالة ان نتطرق الى كل ما قمتم به من أعمال وأفعال تقشعر لها الأبدان باسم المسيحية، ولكن نكتفي بأن نقول للفرنسيين، اياكم ان تنسوا عاركم في الجزائر، فبأسلحتكم الفتاكة قتلتم أكثر من مليون جزائري، تهمتهم الوحيدة أنهم كانوا وطنيين ودافعوا ببسالة عن أرضهم من اجل طردكم، ايها المستعمرون الكولونياليون. كفى، كفى، كفاكم نفاقا ورياء!

نقول لكم، من هنا، من أرض فلسطين الطيبة، مهد المسيح والمسيحية، باستطاعتكم ان تجوعوا أبناء الشعب العربي الفلسطيني، ولكن نعدكم باسم هذا الشعب الجبار أنكم، ومن على شاكلتكم، لن تتمكنوا من تركيع هذا الشعب الذي قدم عشرات آلاف الشهداء والجرحى والأسرى السياسيين وما زال ماضيا على الدرب من اجل تحقيق حلمه باقامة دولته المستقلة والديمقراطية والعلمانية، أبدا لن تستطيعوا تركيعه.

تذكروا، يا زعماء أمريكا وأوروبا في غمرة احتفالكم، الطفلة هديل محمد غبن ابنة الأعوام الثمانية التي قتلت بقذيفة اسرائيلية على منزلها في بلدة بيت لاهيا شمال قطاع غزة، مئات الفلسطينيين شيعوها وأحاطت بالطفلة والدتها وأشقاؤها الصغار الذين أصيبوا بشظايا القذيفة لوداعها.

وحمل المشيعون جثة الطفلة الشقراء، وأحاطت أوراق العنب رأسها الذي لف بمنديل ابيض. وبعدما جاب موكب التشييع الذي شارك فيه عشرات الأطفال شوارع البلدة الضيقة، وصل الى منزل العائلة شبه المدمر حيث سجي جثمان الطفلة. وأحاطت بالجثمان الأم وأطفالها السبعة الذين غادروا المستشفى مؤقتا اثر اصابتهم بشظايا القصف ليودعوا هديل وسط البكاء والعويل. وفي احدى زوايا المنزل البسيط، أيها المسيحيون في الغرب «المتنور»، بدت أرجوحة هديل الصغيرة، فيما جلست شقيقتها روان ابنة العام ونصف العام التي أصيبت بشظايا في الوجه في حضن والدتها تبكي وتنظر حولها من دون ان تدرك ما يحصل.

ايها السادة غير المحترمين، ان دماء الشهيدة هديل وباقي أطفال فلسطين والعراق ستبقى تلاحقكم حتى مماتكم. المسيح والمسيحية براء منكم أيها المجرمون.

عزائي الوحيد، كانسان مؤمن بالله سبحانه وتعالى، في هذا العيد وفي كل عيد أن مكانكم في جهنم مضمون، وبئس المصير... أما لأبناء شعبي فليس عندي ما أقوله أكثر من أمنية كل عيد وأنتم بخير ولا بدّ أن يأتي الفجر...

* كاتب فلسطيني، محرر «كل العرب» الصادرة في الناصرة

الصين وروسيا نحو علاقات اقتصادية واسعة

محمد خليفة *

■ وقعت الصين وروسيا على اتفاق تعاون في مجال الطاقة، وبموجب هذا الاتفاق ستقوم روسيا ببناء خطي أنابيب كبيرين لنقل الغاز الروسي باتجاه الصين خلال خمس سنوات، وقال الكسي ميللر رئيس شركة غاز بروم الروسية ان أحد خطي الأنابيب سينقل الغاز من غرب سيبيريا بينما سينقل الخط الثاني الغاز من أقصى شرق روسيا.

ويعتبر هذا الاتفاق واحداً من بين خمسة عشر اتفاقاً تم التوقيع عليها بين روسيا والصين خلال الزيارة التي قام بها الرئيس الروسي فلاديمير بوتين الى الصين مؤخراً، وتسعى روسيا والصين الى تحسين العلاقات بينهما وبما يخدم مصالح كلّ منهما.

وهناك نقاط كثيرة تجمع بينهما، فهما دولتان كبيرتان بالمساحة والسكان والقدرات. وهما في نفس الوقت دولتان جارتان، وتتعرضان لمؤامرات تحوكها الولايات المتحدة ضدهما بهدف اضعافهما وتفتيتهما الى مجموعة غير متناهية من الدول وازاحتهما من طريق سيطرتها العالمية لأنهما الدولتان الوحيدتان القادرتان على تحدي هذه السيطرة. وتعلم كل منهما أن أية دولة منهما لن تكون قادرة بمفردها على تحدي الهيمنة الأمريكية، بل لا بدّ من العمل سوية لكبح جماح الولايات المتحدة وخلق عالم متعدد الأقطاب لا تكون الهيمنة فيه لقطب واحد.

ولم تكن العلاقات بين روسيا والصين في الماضي جيدة، بل كانت عدائية يشوبها الخوف والتوجّس. فبعد ظهور روسيا القيصرية كقوة عالمية ابتداءً من القرن الثامن عشر، بدأ الروس يمدون بصرهم للسيطرة على الصين، بعد أن كانوا سيطروا على كامل سيبيريا ووصلوا الى المحيط الهادئ وسيطروا أيضاً على كامل آسيا الوسطى الاسلامية المجاورة للصين.

وفي عام 1903 بدأ الروس بمشروع لمدّ سكة حديد من موسكو عبر سيبيريا الى ميناء فلاديفستك على المحيط الهادئ، وذلك لربط الامبراطورية الروسية مع بعضها. وكان جزء من هذه السكة سوف يمرّ عبر اقليم منشوريا التابع للصين، لذلك قامت روسيا بالسيطرة على هذا الاقليم، وتطلعت للسيطرة على كوريا التابعة للصين أيضاً، ولم تكن الامبراطورية الصينية قادرة على صدّ الزحف الروسي لأنها كانت على وشك الانهيار. لكن أطماع اليابان في الصين جعلتها تتحدى روسيا وتعمل على منعها من التقدم في الشرق الأقصى وخصوصاً في منشوريا وكوريا. وهكذا نشبت الحرب بين اليابان وروسيا عام 1905، حول الصين، وانتصر اليابانيون في هذه الحرب وانهزم الروس، وتضعضعت امبراطوريتهم. وكانت هذه الهزيمة سبباً رئيسياً في ظهور الثورة الشيوعية في روسيا عام 1917. والتي قضت على الدولة القيصرية وأقامت الاتحاد السوفييتي الذي تبنى نهجاً معادياً للاستعمار ومناصراً للشعوب المقهورة والمستعمرة.

وسعى الشيوعيون السوفييت الى نشر الشيوعية في العالم، وكانت الصين في العشرينات من القرن الماضي تعاني من الهيمنة الاستعمارية المتمثلة بالاستعمار البريطاني والفرنسي والأمريكي والياباني، كما كانت تعاني من الانقسام الداخلي والحرب الأهلية. واستغل السوفييت الفوضى التي كانت في الصين آنذاك، وشكلوا حزباً شيوعياً من الشباب الصيني المعادي للاستعمار. وسرعان ما أصبح للشيوعيين الصينيين حضورهم في شمال الصين، وبدأوا كفاحهم ضد المستعمرين وضد حلفائهم في الداخل. وقدّم السوفييت مساعدات كبيرة للشيوعيين وخاصة بعد اندحار اليابانيين عن منشوريا على يد السوفييت في نهاية الحرب العالمية الثانية. اذ ترك هؤلاء وراءهم كل معداتهم من الأسلحة الخفيفة والثقيلة، وقد سلم السوفييت هذه المعدات للشيوعيين بقيادة ماو تسي تونغ، واستطاع ماو بهذه الأسلحة اجتياح الصين كلها واقامة جمهورية الصين الشعبية الشيوعية عام 1949، لكن ماو سرعان ما تنكر للمعروف السوفييتي، فعمل على احداث تغيير في النظرية الماركسية، فجعل الفلاحين وليس «العمال» هم أساس الدولة الشيوعية.

وذلك بخلاف الاتحاد السوفييتي الذي كان يعمل على اقامة ديكتاتورية الطبقة العاملة «البروليتاريا». ورفض ماو ربط الصين بالفلك السوفييتي لأن الصين دولة كبيرة وهي قطب بحدّ ذاتها.

وهكذا ساءت العلاقات بين الدولتين الشيوعيتين، وظهر العداء بينهما، ومع انهيار الاتحاد السوفييتي عام 1991، ظلت الصين محافظة على نظامها الشيوعي وان كانت قد تخلّت عن تطبيق الاشتراكية، واتجهت الى اتباع نظام اقتصاد السوق الرأسمالي، وخرجت روسيا من تحت أنقاض الاتحاد السوفييتي دولة فقيرة اقتصادياً وبحاجة الى المساعدات الاقتصادية العاجلة. وأما الصين، فانها ظهرت كقوة عظمى صاعدة، فقد تسارعت وتيرة النمو الاقتصادي فيها خلال التسعينات من القرن الماضي كما زاد فيها حجم الاستثمارات الأجنبية. ولأول مرة منذ اشتركت الصين وروسيا بحدود رسمية تكون الصين هي الطرف الأنشط اقتصادياً والأقوى سياسياً. فقد ازداد تغلغل المهاجرين والتجار الصينيين في المنطقة الروسية، وبلغ نسباً ملحوظة، وبات الوقت الآن ملائماً جداً لتحسين تكتيكي في العلاقات الصينية ـ الروسية خصوصاً أن روسيا الآن أضعف من الصين.

وبناء على ذلك، التقى البلدان في نيسان (ابريل) 1997 ليدينا «الهيمنة» ويعلنا أن توسيع حلف الناتو أمر لا يمكن السماح به. لكن من غير المحتمل أن تفكر الصين جدياً بتحالف روسي ـ صيني شامل وبعيد الأمد ضد أمريكا، لأن ذلك سيعمّق ويوسّع مجال التحالف الأمريكي ـ الياباني الذي تريد الصين أن تذوّبه بسرعة. كما أن من شأنه أن يعزل الصين عن مصادر رأس المال والتكنولوجيا الحديثة اللذين لهما أهمية حاسمة بالنسبة لمستقبل الصين. ولذلك، فان العلاقات بين الدولتين ستبقى عند حدود التعاون البنّاء دون الوصول الى مرحلة التحالف الاستراتيجي.

وفي هذا التعاون هناك مصلحة متبادلة لكل منهما، حيث سيسمح لهما هذا التعاون في رصد التدخل الأمريكي في منطقة آسيا الوسطى وتطويقه، وبالتالي محاصرة المؤامرات الأمريكية ضدهما والتي تنطلق من منطقة آسيا الوسطى المتاخمة لحدود كل منهما. كما أن الصين تستطيع من خلال العلاقة المميزة مع روسيا، أن تحصل على النفط والغاز الروسيين، وهي التي تفتقر الى الطاقة بشكل مخيف مع أنها أصبحت تستهلك في اليوم ستة ملايين برميل من النفط وهذه النسبة في ازدياد مع ازدياد النمو الاقتصادي فيها. ويشكّل توقيع اتفاقية التعاون في مجال الطاقة بين الدولتين فاتحة عهد جديد للعلاقات المميزة بينهما وفاتحة عهد جديد للعالم أجمع الذي سيشهد تغييراً، لا محالة، مع التقاء المصالح بين روسيا والصين.

* كاتب من الامارات
medkhalifa@maktoob.co

عن حرية الاطفال في «المملكة الانسانية»

احمد المصري*

■ يصدم خبر مقتل طفلة سعودية تدعى غصون (9 أعوام)، وتعرضها الى حالة من الضرب المبرح من قبل والدها، مما أدى الى إصابتها ونقلها الى أحد المستشفيات، ولكن روحها فاضت الى بارئها، كل من يقرأه او يسمعه.

فقد وجد الطبيب الشرعي على جثة الطفلة آثار تعذيب جسدي، حيث تم ربطها بسلاسل وضربها بطريقة وحشية، كما كشفت التحقيقات عن وجود إشار